معركة وادي المخازن

من خلال كتاب "حملة الملك دون سبستيان على إفريقيا" لمؤلف برتغالي مجهول(*)

أحمد بوشرب

إن المصادر والوثائق البرتغالية المتعلقة بتاريخ المغرب خلال القرن الخامس عشر والقرن التالي كثيرة ومتنوعة. ولقد سبق لي في مقال نشرته مجلة المناهل (1) أن أكدت على مدى مساهمة هذه الوثائق في كتابة تاريخ بلدنا. خصوصا وأن الوثائق المغربية المتعلقة بالفترة تكاد تكون منعدمة؛ في حين أن مصادرنا قليلة. وفي نفس الوقت مفتقرة إلى الدقة. وقد يتجلى ذلك في كوننا لا نتوفر لحد الساعة على الأقل الا على وثائق قليلة جدا تتعلق بوادي المخازن. في حين أن الأرشيفات الأوروبية تضم عشرات التقارير والمذكرات والرسائل عن ظروف تنظيم الحملة

---

*) بحث ألقي يوم الخميس 25 غشت بمدينة العرائش بمناسبة اسبوعها الثقافي الذي خصص لتخليد معركة وادي المخازن.

1) أحمد بوشرب : مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الاحمر والخليج العربي. المناهل ع 26 ص 32 ـ 83.

والاتصالات الدبلماسية التي تمت بين الأطراف المعنية. وعن أعداد الجنود والعمليات العسكرية وما خطط لها من تكتيك وإستراتيجية...

حقيقة أن هذه الوثائق والمصادر الأجنبية تتوفر على عيوب كثيرة كتحيز محرريها وحقدهم على المغرب والمغاربة. أو كالدفاع عن مصالح المستعمر وتفسير الانتصار أو الهزيمة بالمجهود البرتغالي وحده دون أخذ ردود الفعل المغربية بعين الاعتبار... الخ إلا أنها تبقى مع ذلك أداة عمل مهمة توفر مادة علمية محترمة خصوصا إذا اتخذ المؤرخ الحيطة اللازمة منها. فهي تكمل مصادرنا وتسلط الأضواء على جوانب كثيرة بقيت غامضة من تاريخ بلدنا. لذا يصبح من اللازم علينا إتمام جمعها وترجمتها ونشرها.

وخلال بحثي هذا لن أتعرض إلا للمصادر المتعلقة بمعركة وادي المخازن لأن الوثائق معروفة نسبيا بسبب نشرها المبكر ابتداء من (1905) على يد الباحث الفرنسي (هنري دو كاستر Henri de Castries) ومساعديه ضمن السلسلة الشهيرة (المصادر الدفينة المتعلقة بتاريخ المغرب) ولكونها استغلت في دراسات مغربية تتعلق بمعركة وادي المخازن وسأكتفي هنا بالإشارة إلى بعض مساهمات المصادر البرتغالية معتمدا في ذلك على مصدر معاصر للمعركة هو: «حملة ألملك دون سبستيان على إفريقيا».

« Jornada del Rey Dom Sebastião à Africa »

وأود قبل الحديث عن هذا المصدر التأكيد على الملاحظتين التاليتين المتعلقتين بمدى اهتمام البرتغاليين. قدامى ومحدثين. بمعركة وادي المخازن :

1 ـ إن ما يثير انتباه متتبع الكتابات التاريخية المتعلقة بمعركة وادي المخازن قديما وحديثا بالبرتغال هو وجود سكوت غريب عنها رغم خطورتها على تطور البرتغال بعد 1578. ورغم أن آثارها الفكرية على وجه الخصوص بقيت قائمة إلى يومنا هذا. فالمعركة لم تكن موضوعا خاصا إلا لمصدرين برتغاليين فضل مؤلف أحدهما أن يبقى اسمه مجهولا. هما المصدر الذي سأعود إلى تحليل مادته العلمية. وآخر حرره (جرونيما دو مندونصا (Jerónimo de Mendonça) تحت العنوان التالي : «الحملة على إفريقيا» « Jornada de Africa » وتنطبق نفس الملاحظة على الدراسات. فما هو مرتبط بالمعركة بشكل مباشر قليل جدا وينحصر في المقالة السريعة أو الدراسة السطحية (2). لذا لم أقف ولو على مقال واحد أو دراسة واحدة حررت بقلم أحد المؤرخين البرتغاليين البارزين. وعلى العكس من ذلك. نجد الدراسات التي تهتم بعهد وشخصية دون سبستيان أو بالتيار الفكري (السباستيانية Sébastianisme) الذي نتج عن إختفائه المأساوي تصل إلى 38 دراسة ومقال على الأقل. الأمر الذي يجعل من هذا الملك الشخصية السياسية البرتغالية التي حظيت بأكبر عناية من طرف المؤرخين البرتغاليين. قدامى ومحدثين. ومست هذه الدراسات جوانب غريبة لم يهتم بها بالنسبة لشخصيات برتغالية أخرى كنفسية الملك أو مدى صحته العقلية والجنسية. وتمت على يد

---

(2) راجع مثلا :

- Aguiar, Fernando, de : Em redor de Alcácer, Porto, 1942
- Dornelas Alfonso : de Ceuta a Alcácer-Quibir. Lisbonne 1925
- Esaguy . Jose de : O Minuto vitórioso de Alcacer Quibir, Lis. 1944
- Mendonça, Lopes : A batalha de Alcácer Quibir e a perda del Rey D. Sebastião, Rev. Panorama, 1858

أطباء وعلماء نفس بارزين (3). وقد يتجلى هذا السكوت المقصود عن المعركة والاهتمام الكبير بشخصية الملك فيما يلي :

- فبمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية الرابعة للمعركة. لم يكتب ولو كتاب واحد عنها بينما تعددت الدراسات عن سبستيان إلى حد أن دارين مختلفتين للنشر أصدرتا مؤلفين لمؤرخين مختلفين يحملان نفس العنوان المعبر ، دون سبستيان قبل و بعد القصر الكبير.

« Dom Sebastião antes e depois de Alcacer Quibir »

وعلى العكس من هذا اهتم المؤرخون البرتغاليون اهتماما خاصا بالهجوم على سبتة سنة 1415. ودار نقاش حاد بين كبار المؤرخين البرتغاليين حول أهم الدوافع التي كانت وراء اختيار تلك المدينة المغربية كأول هدف (4).

كما يتجلى سكوت المؤرخين البرتغاليين عن معركة وادي المخازن في كون المصادر القليلة جدا المتعلقة بها لم تعرف إلا رواجا جد محدود جعلها تصلنا اليوم في نسخ وحيدة. وفي كونها لم تعرف النشر إلا مؤخرا. فالمصدر الذي سأتحدث عنه لم ينشر لأول مرة إلا سنة 1970. وتم ذلك بالمزنبيق وليس بالبرتغال !

- Moura Relves ; Joaquim . El-Rey D. Sebastião, Ensaio biológico. – Coimbra. 1972 (3
- Oliveira Martins : Ceuta. in « Os filhos de D. João I » réedition 1973, p. 41 76 (4
- António Sergio : A conquista de Ceuta... Ensaios, I p. 255-71
- David Lopes : História de Arzila durante o domínio português (1471-1550 e 1577-1589), Coimbra, 1924 (introd)
- Jaime Cortesão : A Expansão dos portugueses no periodo Henri quino. Lisbonne 1975) pp. 137-167.
- V. Magalhães Godinho : A Expansão quatrocentista portuguesa (Ceuta e Marrocos). pp. 51-73.
- etc...

ويعود هذا السكوت المقصود عن معركة وادي المخازن إلى السببين الرئيسيين التاليين :

أ ـ لقد كانت المعركة نكسة كبرى بالنسبة للبرتغاليين الذين أعطتهم انتصارات بداية القرن السادس عشر ثقة كبيرة بالنفس. وجعلتهم عظمة المكتسبات المحققة بالمقارنة مع إمكانات بلادهم المحدودة يعتقدون أن ذلك يمثل هبة إلهية لذا راج عند خاصة وعامة الناس أن البرتغاليين أصبحوا يمثلون أنذاك شعب الله المختار (5).

ولقد كان من المنتظر من حملة سبستيان على المغرب أن تعيد الثقة إلى النفوس بعد خيبة الأمل التي سببها التراجع الذي عرفته المكتسبات البرتغالية في عهد سابقه الملك يوحنا الثالث الذي اضطر إلى التراجع أمام زحف قوات الشرفاء السعديين بكل من أكدير وأسفي وأزمور (1541) وأصيلا والقصر الصغير (1555).

ب ـ إسقاط البرتغاليين بسبب تلك الهزيمة الكبرى في وضعية كانوا يعملون باستمرار على تفاديها، وهي الدخول تحت السيطرة الإسبانية لكون فليب الثاني أصبح بعد موت سبستيان الوارث الشرعي لعرش البرتغال. وكان هذا الخوف وراء المكانة الخاصة التي خص بها برتغاليو ذلك العصر سبستيان لأن مولده أنقذهم من تلك الوضعية التي كانوا على وشك السقوط فيها لموت أبيه قبل مولده؛ لذا لقبه الشعب بـ O. Desejado المحبوب، أو المرغوب فيه. وبما أن موته في عنفوان شبابه (24 سنة) قد أسقطهم في قبضة فليب الثاني فإن فئات

---

5) –Jào de Barros : As Décadas de Asia II, p. 43 (Lis. 1945)
– Hernani Cidade : A literature portuguesa e a Expansão ultrmarina, 1963 (lis.) p. 61

عريضة من الشعب البرتغالي رفضت تصديق وفاته بساحة المعركة واعتقدت أن إهانة الهزيمة فرضت عليه الاختفاء لزمن معين. لذا أضحى سبستيان عند البرتغاليين O. Encaberto أي المختفي الذي سيعود للظهور من جديد.

2 ـ الملاحظة الثانية المتعلقة بهذه المصادر البرتغالية تتعلق بأسباب ودوافع تحريرها.

فهذه المصادر البرتغالية تهتم بالمعركة من خلال زاوية خاصة. وهي العمل على تحديد مسؤوليات مختلف الفئات الاجتماعية البرتغالية فيما سقطت فيه البلاد من مشاكل بسبب تلك المعركة. لذا نقف على نوعين متناقضين من المصادر :

ـ نوع ينزل اللوم على رجال الكنيسة وخصوصا منهم الجزويت الذين تكفلوا بتربية وتعليم الملك الصبي. والذين حملوا مسؤولية تنظيم الحملة على المغرب لكونهم اتهموا بتحريض الملك على محاربة المسلمين والتأثير عليه وإشباعه بالروح الصليبية. ومن هذه المصادر يمكن ذكر المصدر الذي سأعود بعد قليل لعرض مادته العلمية. وهذا النوع من المصادر يرتبط بالنبلاء.

ـ نوع ثان حاول إلصاق التهمة بالنبلاء والعسكريين ودحض ما حاولت الكتابات السابقة إلصاقه بالجزويت من تهم. ومن هذه المصادر مؤلف الراهب (أمدور ربيلو (Amador Rebello) «تاريخ حياة الملك دون سبستيان» (6). « Relação da vida d'El-Rey dom Sebastião ».

---

16 – FranciscoSales Loureiro, lis. 1977

الذي كان مؤلفه أستاذ ومرافق سبستيان منذ أن كان صبيا في السادسة من العمر إلى أن نظم حملته على المغرب.

إن المصدر الذي اخترته كنموذج يحمل العنوان التالي : «حملة الملك سبستيان على إفريقيا» « Jornada del Rey dom Sebastião à Africa » لقد فضل مؤلفه أن يبقى اسمه مجهولا وذلك لأسباب لم يصرح بها وإن كانت مرتبطة بخوفه من بطش فليب الثاني لشدة وطنيته وغيرته على بلاده. وإذا كان المؤلف سكت كذلك عن تاريخ الإنتهاء من التأليف. فإن ما ورد بالكتاب من إشارات إلى بعض الأحداث والأشخاص يؤكد أن التحرير تم ما بين 1588 و 1598 وبذلك يكون تاريخ التأليف غير بعيد عن الأحداث المؤرخ لها.

وفضلا عن معاصرة المؤلف للأحداث. يتوفر هذا المصدر على مزية أخرى تزيده أهمية. وهي أن المؤلف صرح أنه شارك في معركة وادي المخازن وذكر ما يفهم منه أنه كان ممن كانوا يحضرون ديوان الملك.

ويحتوي الكتاب على ثلاثة أقسام تتوزع فيما بينها خمسة وستين فصلا قصيرا. وخصص المؤلف القسم الأول والثاني لعهد الملك سبستيان 1568 ـ 1578 وجاء في 55 فصلا (28 للقسم الأول و27 للثاني) في حين وزع مادة القسم الثالث على عشرة فصول خصصها لعهد الكردنال هنريك (1578 ـ 80).

إلا أن أهم مادة الكتاب تتعلق بحملة سبستيان على المغرب. الأمر الذي يبرر العنوان الذي أعطاه المؤلف لكتابه أو «مذكراته» كما يحلو له أن يسميها. وبالمقارنة مع ما كتب عن معركة وادي المخازن من مصادر. يبدو مصدرنا هذا «... أكمل الأعمال المحررة بالبرتغالية عن الحملة ضد المغرب وأصدقها في نقل الأخبار. بل وأكثر من هذا. فهو المصدر

البرتغالي الوحيد الذي ذكر الظروف الحقيقية التي تم فيها قتل دون سبستيان...» (7).

وإذا كان صاحب هذا المصدر قد تبنى منهجا كرنلوجيا بسيطا تتبع بواسطته تطور مشروع سبستيان منذ أن كان مجرد فكرة في ذهن صبي إلى أن انتهت إلى المصير الذي نعرفه. فإني عملت على استخراج المواد التي تتعلق بالمحاور الرئيسية التي يدور حولها الكتاب. وكانت أربعة :

1 ـ المحور الاول، ويتعلق بأوضاع المغرب والبرتغال قبيل الحملة.

لقد حاول المؤلف أن يقنعنا بأن الحملة كان ينتظرها مصير واحد. هو الهزيمة لأنها أعدت في غياب هياكل سياسية وإدارية قادرة على تسييرها والإشراف عليها. وفي غياب هياكل مالية في مستوى حجم الحاجيات التي تتطلبها الحملة. وفي غياب مخطط عسكري واضح واستراتيجية محددة مسبقا ! لقد كان كل شيء يقول المؤلف. يتم حسب هوى الملك الذي لم يكن النبلاء والمستشارون يجرؤون على معارضته أو مجرد مناقشة أفكاره وآرائه. ولقد أطال المؤلف بأسى كبير في تعداد حالات الرشاوي واستغلال النفوذ والاستيلاء على أموال الدولة التي أضحى الوزراء وكبار المسؤولين البرتغاليين يقومون بها بدون أدنى خوف أو خجل (8).

وأكد المؤلف كثيرا على تفشي الرذائل بين البرتغاليين الذين اعتبرهم جد مخالفين للأجيال السابقة من ناحية الأخلاق والقيم. وحمل

(7 -Jornada del Rey ... op. cit. p. XXXIX (introduction de l'éditeur F.S. Loureiro).

(8 - Jornada... op. cit. p. 43

إنشاء إمبراطورية واسعة وما نتج عنها من انكباب على جمع الأموال، ولو بطرق غير مشروعة، واختلاط البرتغاليين بشعوب مختلفة، مسؤولية ذلك الانكباب على الرذائل. (9) وكانت غاية المؤلف من هذا العرض إقناعنا بالتبرير الذي أعطاه للنهاية التي عرفتها الحملة، والتي جعلها تبدو كعقاب إلهي وإنذار بأن ما ينتظر البلاد سيكون أسوء إذا ما تغافل البرتغاليون عن اتخاذ العبرة (10).

ومن جهة أخرى، ذكر أنه إذا كان النبلاء قد استجابوا لنداء ملكهم، فإن فئات عريضة من الشعب البرتغالي رفضت المساهمة في مغامرة الملك الشاب، وامتنعت عن القيام بالخدمة العسكرية معتمدة في ذلك على الرشاوي (11).

وكانت الصورة التي تركها لنا المصدر عن المغرب جد مخالفة، فلقد أكد أن المغاربة ما إن علموا بعبور سبستيان البحر إلى بلادهم حتى التفوا حول ملكهم وتقاطروا على الهبط من كل الجهات لأنهم تنبهوا إلى أن حملة الملك البرتغالي «... لا تهدف إلا إلى الاستيلاء على أراضيهم وأسر نسائهم وأبنائهم لذا هبوا للمشاركة في تلك الحرب حتى من المناطق الأشد بعدا بداخل إفريقيا...» (12)، وأطال المؤلف كذلك في ذكر إستعدادات المعتصم العسكرية والدبلماسية لمنع تنظيم الحملة أولا ثم لإفشالها ثانيا (13).

---

9) – Ibid p. 11
10) –Ibid pp. 67 و 124
11) – Ibid pp. 59
12) – Ibid p. 84
13) –Ibid p. 81, 53 – 54

وعن أوضاع البلاد السياسية سلط المؤلف الأضواء على الحرب الأهلية التي عرفتها بلادنا بعد دخول المعتصم إلى المغرب (14) وتمكنه من طرد ابن أخيه من السلطة. ورغم أن معلومات هذا المصدر البرتغالي دون ماتوفره مصادرنا من دقة وتفاصيل. فإن الاعتماد عليه لا يخلو من فائدة خصوصا فيما يخص أحكام القيمة التي أصدرها عن كل من المعتصم والمتوكل وأحمد المنصور.

ولقد أرجع المؤلف انتصار المعتصم على ابن أخيه إلى :

- ذكائه وخبرته بشؤون الحرب. الأمر الذي أكد عليه المؤلف عدة مرات (15) وجعله كذلك من أهم أسباب انتصار المغاربة بوادي المخازن (16).

- حب المغاربة للمعتصم وارتباطهم به وحقدهم على المتوكل.وكان المؤلف كذلك على اطلاع واسع بالتنظيمات العسكرية التي كان المغرب يعتمد عليها في عهد المعتصم. إذ ذكر مختلف الفرق العسكرية وأعدادها واصل جنودها (اندلسيون. علوج...) واسلحتها. وحتى اسماء اهم قوادها. الشيء الذي لا يرد في المصادر السعدية بنفس الدقة والتفاصيل (17).

وأخبرنا مؤلف هذا المصدر عن ظروف مبايعة المنصور الصعبة وعن قتله لأشهر قواد جيش الأندلس. الدغالي. مما يجعل هذا المصدر يوفر مادة علمية لا تخلو من فائدة. انفرد مؤرخ عهد المنصور. عبد العزيز الفشتالي بذكرها (18).

14) - Ibid pp. 27 - 29

15) - Ibid pp. 28, 81, 91, 105

16) -Ibid, 105

17) -Ibid 81, 83

18) - Ibid 129, 134 عبد العزيز الفشتالي : مناهل الصفا في ماثر موالينا الشرفا. تحقيق د. عبد الكريم كريم. الرباط (بدون ت) صص 41 ـ 47.

وعن الأوضاع الديموغرافية أكد المؤلف على كثرة المغاربة الذين كانوا ينتشرون في كل مكان. والذين شبه تكاثرهم بتكاثر النحل ! (19).

2 ـ المحور الثاني ويتعلق بالحملة التي تمثل القسم الأكبر من مادة هذا المصدر.

فلقد تعرض بكل تفصيل إلى استعدادات كل من سبستيان فور عودته من (كوادلوب) التي التقى بها بخاله فليب الثاني إذ «... أمر بترتيب شؤون الحملة بأكثر ما يمكن من السرعة بدءاً بتوفير الأموال... » (20)

وعن الترتيبات التي قام بها عبد الملك بعد علمه بنوايا سبستيان ذكر أنه أحسن استغلال الوقت (ثلاثة أشهر). فبعد تهدئة بعض أطراف السوس التي بقيت وفية لابن أخيه المتوكل «... عزز حاميات الموانئ التي توقع أن النصارى قد ينزلون بها. فجعل برأس غير (Guir فونتي) قائد قواده سعود (Sauda) على رأس ألف أندلسي وألفين من المغاربة (mouros) المشاة. وأوفد ابن أخيه (Dant) إلى ضواحي مازيغن على رأس 4000 من الفرسان والمشاة. وبالعرائش جعل حاجبه محمد (M. Hayarcom) على رأس أربعة آلاف أخرى. ولما علم بنزول الملك بأصيلا أوفد أخاه المولى أحمد يقود 3000 رمح و 2000 من مستعملي البنادق الراكبين وأمره بالبقاء باستمرار على مرأى من محلة النصارى واقتفاء أثرهم وإقلاق راحتهم... » (21) ويضيف المؤلف أنه بعث برسائل

19) Ibid p. 84 –
20) Ibid p. 43 –
21) Ibid p. 81 –

إلى كل الأقاليم يحث السكان فيها على الجهاد. الأمر الذي جعله يكون جيشا قويا تحرك به نحو القصر الكبير...» (22)

وتعرض المؤلف كذلك لمحاولات عبد الملك إبعاد سبستيان عن مشروعه وتحذيره من المتوكل الذي احتمى به. مؤكدا على رغبته في السلم. وأورد المؤلف ترجمة إحدى رسائل هذا السلطان (23).

وتتبع المؤلف بدقة كبيرة تحرك الجيشين من كل من لشبونة ومراكش إلى موقع المعركة الذي خصه بوصف دقيق.

وزودنا هذا المصدر البرتغالي بأعداد الطرفين. فلقد ذكر أن الجيش البرتغالي كان يضم 000 20 محارب منهم 000 3 ألماني و 000 2 إسباني و 600 إيطالي. واصطحب سبستيان معه 12 مدفعا. ويلاحظ أن مصدرنا يختلف في هذه الأعداد مع المصادر البرتغالية الأخرى التي تجعل عدد الجنود يتراوح ما بين 14 ألف و 20 ألف. وعدد المدافع 36.

وفضلا عن هؤلاء المحاربين كان إلى جانب محمد المتوكل حوالي 400 فارس (24).

وأكد المؤلف كثيرا على كثرة أعداد المغاربة لرغبتهم في الاستشهاد وحرصهم على إفشال مخطط الملك البرتغالي الذي كان يهدف إلى الاستلاء على أراضيهم وأسر زوجاتهم وأبنائهم... وكان الجيش المغربي مكونا على الشكل التالي : 000 66 من الفرسان. 000 44 من المشاة. وكانت قطع المدفعية 22. وأورد المؤلف تفاصيل مهمة عن مختلف عناصر الجيش المغربي. وأعدادها وأسلحتها ورؤسائها... (25) وللتعبير عن كثرة

---

22) ـ نفس معطيات الهامش السابق

23) - Ibid p. 54

24) - Ibid p. 73

25) - Ibid pp. 83-85

أعداد الطرفين كتب : «... إن مشاهدة عظمة الجيشين. الإسلامي والمسيحي. وعدد الرماح والخيام ولمعان السلاح والضجيج والطلقات وأصوات الجنود تجعل القلوب ترتجف وألوان الوجوه تتغير. وتجعل كل واحد يخاف على مصيره حتى ولو كان فريقه هو الأكثر أمنا... (26) ولعل أهم الإضافات التي زودنا بها المصدر عن المعركة تتلخص فيما يلي :

- لقد كان الهدف الأصلي للحملة هو احتلال العرائش. فهذا ما تم الاتفاق عليه بين سبستيان وخاله وبينه وبين المتوكل الذي التقى به بطنجة. وكان الانطلاق من أصيلا يهدف حسب نفس المؤلف إلى الاتجاه برا إلى هذه المدينة المغربية. « وذلك رغم أن المتوكل طلب منه عددا من الجنود والمراكب للذهاب إليها بحرا واحتلالها لتسهيل دخول سبستيان إليها. إلا ان الملك اصر على الالتحاق بها برا...» (27).

- وأمام كثرة المغاربة واستعدادهم للمواجهة. بدأ البرتغاليون. يقول المؤلف. يفكرون في الانسحاب والفرار إلى سفنهم. وذكر المؤلف أن المتوكل كان من بين المدافعين على هذا الرأي (28). وإذا كان الملك وبعض كبار ضباطه قد عارضوا هذا الاقتراح. فإن سبستيان تبناه صباح يوم المعركة (4 غشت) وأعطى فعلا أوامره «.... وشرع في التحرك حول النهر قصد عبوره والاتجاه نحو العرائش التي توجد على بعد ثلاثة

26) Ibid pp. 90-90 –
27) Ibid p. 76, 77 –
28) Ibid p. 93 –

(الغواش) (29) مصمما العزم على الاصطدام مع العدو إذا ما حاول سد الطريق في وجهه...» (30).

- وسلط المؤلف أضواء كاشفة عن التكتيك الحكيم الذي اتبعه المعتصم وضباطه. والذي انتهى بتطويق كل الجيش البرتغالي تطويقا كاملا إذ لم يستطع الفرار إلا 40 شخصا بينما قتل أو أسر الباقون أو غرقوا. وهذه إحدى الفقرات التي عبر فيها المؤلف عن إعجابه بخبرة عبد الملك الحربية : «... وعند طلوع فجر ذلك اليوم الرابع من غشت. شرع في ترتيب جيشه فجعل الرماة - المشاة على شكل هلال. وجعل الأندلسيين في موضع والمرتدين (العلوج) في آخر. بينما وضع الأهالي في محل آخر لكي يتعاونوا فيما بينهم ولكي يتنافسوا في الاستبسال. وفي قرني الهلال وضع كوقاية. 000 3 فارس. أقول 000 10 فارس. وقسم باقي الفرسان إلى فرق صغيرة شرعت في الابتعاد عن ساحة المعركة والانتشار بعيدا بالسهل لتنتهي اعتمادا على كثرتها إلى تطويق الجيش المسيحي من كل الجهات واحتوائه. ورغم أن المسلمين بطبعهم لا يلتزمون بأي نظام خلال معاركهم. فإن عبد الملك الذي. كان جنديا متمرنا وذا تجربة وخبرة في شؤون الحرب استطاع الحفاظ خلال ذلك اليوم بكل دقة على النظام...» (31).

3 - وكان المحور الثالث يتعلق بنتائج هذه المعركة الكبرى.

فبالنسبة للبرتغال تعرض المصدر لنتائج المعركة السياسية. ولقد

---

29) - تقدر مسافة كل واحدة بخمسة كيلو ميترات ونصف.

30) - Jornada.. po cite p. 101

31) - Ibid p. 96

خصص المؤلف لها القسم الثالث والأخير من كتابه. حيث تعرض لفترة حكم الكاردنال هنري الذي بويع بعد وصول خبر موت سبستيان (1578 ـ 1580). ولدخول البرتغال تحت الوصاية الإسبانية بعد موت الكاردنال العجوز وتمكن الجيش الإسباني من القضاء على المقاومة البرتغالية الضعيفة.

أما عن النتائج المالية. فلقد أكد المؤلف على إفقار البلاد بسبب تلك الحملة لكثرة ما تطلبته من أموال. ولما حمله النبلاء معهم من أموال وأحجار كريمة ولما دفعه الأسرى البرتغاليون لتحرير أنفسهم وتحرير ذويهم «... إن السلب والغنائم المحصل عليها بتلك المعركة يمثل أهم ما تم الحصول عليه بكل معارك العالم المعروفة. لأن في غيرها تحدد أهمية الجيش بالسلاح والدخيرة في حين أن في هذه لم يكن الرجال الذين التحقوا بساحة المعركة يبحثون إلا عن راتب أكيد أو عن النصر أو عن التفاخر بالجاه والنفوذ. لذا حملوا معهم ثروتهم من الذهب والفضة جاعلينها زينة. وذلك بدون خوف من أن تغني أعداءهم. إلا أنهم أخطأوا في الأخير لأنهم تركوهم أغنياء بينما تركوا مواطنيهم فقراء وبيوتهم إما مفقودة أو مرهونة أو جد متواضعة لكون الذين شاركوا في تلك الحملة القاسية لم يكتفوا بحمل ما كان بأيديهم من أموال بل ذهبوا مزينين. هذا فضلا عن مبالغ الفديات الباهضة التي أضيفت فيما بعد إلى كل هذا لتجعل منهم أناسا فقراء ومحرومين من كل شيء...» (32).

أما بالنسبة للمغرب. فإن مصدرنا هذا يسلط أضواء مهمة على النتائج التي تلت مباشرة هذا الانتصار كظروف مبايعة المنصور. إلا أن

(32 - Ibid pp. 127, 128

أهم إضافة تتمثل في ذكر المؤلف لأهم الأسباب التي شغلت المنصور عن استغلال اندحار البرتغاليين لتحرير الثغور التي كانت بأيديهم وخصوصا تلك التي كانت قريبة من موقع المعركة. وأعطانا تبريرات أهمها :

- أسباب شخصية مرتبطة بالمنصور الذي جعله أقل معرفة بشؤون الحرب من المعتصم، وأقل شجاعة منه (33).

- كون مبايعة المنصور بساحة المعركة لم تكن أكيدة. فلقد ذكر المؤلف أنه اضطر إلى قتل قائد جيش الأندلس، الدغالي «... وآخرين كان يشك في إخلاصهم...» وإن كان بشكل دون دقة ما ورد بمناهل الصفا (34).

- خوفه من أن يبايع المغاربة ابن عبد الملك، وإن لم يذكر أنه كان بالجزائر (35).

- خوفه من تدخل الأسطول البرتغالي الذي كان مستعدا للتدخل.

- خوفه من استغلال فليب الثاني لهجومه على الثغور للتدخل بالمغرب (36).

4 ـ وكان المحور الأساسي الرابع في هذا المصدر يتعلق بتحديد المسؤوليات فيما حل بالبلاد.

ويبدو من خلال الكتاب أن المؤلف حمل مسؤولية الفاجعة للأطراف التالية :

---

33) Ibid p. 129, 134 -

34) Ibid pp. 129-139 -

35) Ibid p. 134 -

36) ـ نفس معطيات الهامش السابق.

أولا : الملك دون سبستيان الذي أطال المؤلف في ذكر الأخطاء التي ارتكبها والتي نسب إليها نكسة البرتغاليين. ومن هذه الأخطاء :

- إنعدام السرية في تجهيز الحملة. الأمر الذي جعل «... كل دواوير إفريقيا تعلم بنواياه» (37) وهذا ما أعطى للسلطان مدة ثلاثة أشهر لجمع قواه وتحصين سواحل بلاده. ولقد أكد المؤلف على أهمية عامل المفاجأة الذي جعل منه عاملا أساسيا في انتصار البرتغاليين بسبتة سنة 1415. ولقد سخر من تماطل سبستيان بقادس وحضوره رفقة جيشه لحفلات هناك لبضعة أيام (38).

- إرتكابه لعدة أخطاء تكتيكية كتحركه البطيء وإقامته بأصيلا. ثم تخليه عن مشروعه الأصلي القاضي بالاكتفاء باحتلال العرائش. ورفضه لاقتراح المتوكل الرامي إلى احتلالها (39)؛ اتخاذه لقرار اعتبر مغامرة كبرى. وذلك بالتحرك برا من أصيلا إلى العرائش؛ إصراره على إعطاء الأوامر دون أن تكون له دراية بشؤون الحرب (40).

- عناد سبستيان الذي لم يكن يسمع رأي أحد. ومن الامثلة التي أوردها المؤلف :

- إصراره على تنظيم الحملة ضد المغرب رغم معارضة عمه وخاله وفئات عريضة من الشعب لها (41).

---

37) – Ibid p. 49
38) – Ibid p. 74
39) – Ibid p. 76
40) – Ibid pp. 41, 76
41) – Ibid pp. 41, 65, 67...

- رفضه لطلبات الصلح والتفاوض التي قدمها المعتصم بطريقة مباشرة أو بواسطة فليب الثاني (42).

- إصراره على التخطيط للمعركة رغم عدم درايته. ولقد ذكر المؤلف أن ذلك دفع بعض كبار النبلاء إلى التفكير في اعتقاله ما بين أصيلا وموقع المعركة (43). ولقد عبر عن قرار الملك القاضي بالالتحاق بالعرائش برا بالعبارات التالية : «... شرع في التوغل في المناطق الداخلية على رأس محلته. متخذا بذلك قرارا جريئا ومليئا بالمخاطر ومخالفا لكل عقل ومنطق...» (44).

غير أن المؤلف كان أبعد الناس عن جعل الملك المسؤول الأول والوحيد عن الهزيمة. بل على العكس من ذلك. جعل منه الضحية الكبرى ؛ فهو يرى أن سبستيان رغم كثرة أخطائه. لم يكن إلا ضحية تمثل من خلالها عقاب الله للبرتغاليين. وحاول المؤلف إقناع القارئ بمسؤولية فئات أخرى.

ثانيا : رجال الدين وخصوصا الجزويت. الذين كانوا يشرفون على تربية الملك. والذين أثروا عليه وجعلوه يؤمن إيمانا أعمى بأنه بإمكانه غزو المغرب ومحو الإسلام منه. «... وهكذا أضحوا متحكمين في الملك الذي أبعدوه عن النبلاء، وعملوا على دفعه بحجج واهية إلى عبور البحر إلى إفريقيا وجعلوه يعتقد أنه بإمكانه أن يصبح إمبراطور موريطانيا...» (45) ولقد أكد المؤلف كثيرا على أن الملك أضحى مجرد

---

42) - Ibid pp. 53, 54

43) - Ibid p. 77

44) - Ibid p. 85

45) - Ibid p. 15

ألة بيد أولئك الرهبان الذين استولوا لذلك على السلطة وعلى أهم موارد الدولة (46).

ثالثا : النبلاء ومستشارو الملك الذين جعلهم خوفهم على مناصبهم ومكانتهم لا يجرؤون على معارضة مشاريع الملك أو مجرد مناقشتها. وفي هذا كتب «... لقد استمعوا جميعا إلى قرار الملك. وبسبب خضوعهم الكبير. وضعف عزيمتهم لم يجرؤ ولو واحد من أولئك الرهبان وكبار النبلاء على معارضته. بل على العكس من ذلك. أقبلوا عليه لقلة احترامهم لأنفسهم وشدة خجلهم وخوفهم وقبلوا يديه وكأنهم له شاكرين على دفعه إياهم إلى الموت...» (47).

الخـــاتمة :

إن الكتاب الذي انتهينا من عرض مادته العلمية المتعلقة بمعركة وادي المخازن ينحصر في نهاية الأمر في دفاع مؤلفه عن أطروحة : فهو يعتقد أن الحملة على المغرب وما تولد عنها من نتائج وخيمة على البرتغال هي نتيجة لتعليم سيء لقن لشخصية عنيدة كانت تحكم شعبا أفرط في ارتكاب المعاصي والخطايا ولذلك يرى المؤلف أن كل ما حل بالبرتغال من هزيمة وإهانات هو عقاب إلهي.

إلا أن قراءة هذا المصدر المهم. تفرض ملاحظتين :

الملاحظة الأولى : يتجلى بكل وضوح أن المصدر المذكور يرجع الفشل البرتغالي إلى عوامل برتغالية محضة. ولا يدخل في حساباته وتعليله موقف المغاربة من الحملة وإصرارهم على إفشالها مهما

46) Ibid p. 17 -

47) Ibid p. 49 -

كانت التضحيات لتوقعهم لخطورتها. فالمصدر من هذا الجانب لا يختلف عن باقي المصادر البرتغالية المتعلقة بالغزو البرتغالي لسواحل بلادنا. والتي تفسر تراجعه بأسباب مرتبطة بالبرتغال دون اعتبار ردود الفعل المغربية التي كانت بكل تأكيد وراء ذلك التراجع. ومعلوم أن هذه المصادر غرت كل المؤرخين الأجانب الذين درسوا هذا الموضوع. وعلى رأسهم (روبير ريكار) في مقالته الشهيرة : «سياسة الاحتلال المحدود بشمال إفريقيا» (48).

R. Ricard : la politique de l'occupation restreinte en Afrique du Nord.

الملاحظة الثانية :

لقد كان المصدر رغم لومه للملك وتأكيده على كثرة ما ارتكبه من أخطاء يهدف في الحقيقة إلى تبرئة ذمته. وإلى جعله مجرد ضحية أساتذته ومستشاريه وشعبه. وخصوصا جعله الشخصية التي شاء الله ان يتجسد من خلالها عقابه للبرتغاليين ! وبذلك يكون المؤلف قد سقط في التعليل الغيبي البسيط. إلا أن دراسة الظروف الموضوعية التي كانت وراء تنظيم الحملة تسمح بالتخلي عن هذا المنظور التقليدي الذي يجعل من الفرد صانع التاريخ. وباعتباره مجرد نتاج لظرفية اقتصادية وسياسية وفكرية معينة.

وكانت تلك الظرفية ببرتغال النصف الثاني من القرن السادس عشر مرتبطة بتراجع البرتغاليين بكل مكان من امبراطوريتهم التجارية مباشرة بعد الأزمة الاقتصادية العالمية التي اندلعت حوالي 1520 ـ 1521

---

(48) Revue : Annales d'histoire économique et sociale. 1937 pp. 426-437

(49). ذلك التراجع الذي خلق أزمة اقتصادية حادة جعلت النبلاء ورجال الكنيسة على حد سواء، يدفعون الدولة إلى تبني غزو المغرب لتخطي تلك الأزمة الاقتصادية. فإذا كان دون سبستيان قد قام بالهجوم الفاشل سنة 1578. فإن مجلس الكورتيس أوصى بذلك وبالحاح كبير منذ سنة 1562 ـ 1563 (50). وتجلى ارتباط النبلاء بالمغرب وعدم اطمئنانهم للسياسة الدفاعية المتبعة به من قبل جد سبستيان في معارضتهم لتفكيره في التخلي عن أسفي وأزمور التي تجلت من خلال الأجوبة التي أجابوا بها على الإقتراح الملكي (1534) (51)؛ كما تجلت أيضا في حماس هذه الفئة الاجتماعية حين محاصرة الغالب لمازغن (1562) (52). وبذلك يصبح من اللازم إعادة النظر فيما يخص الأسباب الحقيقية التي كانت وراء مسؤولية تنظيم الحملة ضد المغرب. فلقد اصبح المسؤولون البرتغاليون والفئات ذات النفوذ يرون في غزو المغرب حلا لمشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية. وهذا موضوع آخر لا يزال في حاجة إلى دراسة خاصة.

فاس   أحمد بوشرب

---

49) Victorino Magalhães Godinho – Le tournant mondial de 1517 – 1524 et l'Empire portugais. Studia, n° 1. 1958 (Lisbonne) pp. 184 – 199
– Les fluctuations économiques au XVI° siècle, problèmes de diagnostic et d'interprétation. Económia N° IX pp. 109 – 116
– Os Descobrimentos e a económia mundial. Lisbonne. 1965. Vol II p. 592 et suiv.

50) – Jornada... op. cité p. XV (introduction)

51) Sources Inédites de l'Histoire du Maroc : 1° série. Portugal. Tome II pp. 637 – 702. tome III pp. 1 – 14

وعن هذه الرسائل المتبادلة بين الطرفين وموقف النبلاء من اقتراح الملك، راجع دراستنا : «كالة والاستعمار البرتغالي... فصل 3. باب 4 (تحت الطبع)

52) Jornada... op. cité pp. XII – XIII